http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1718) السنة السابعة - الاثنين (8) شباط 2010

مشكلات المريض نفسيا بين الخجل واللجوء الى عالم الشعوذة والدجالين

مستشفى اختصاصية في بغداد

كلمة مريض نفسي او مرض نفسي مدعاة للخجل عند الكثيرين ، بل ان البعض يعتقدها كلمة مرادفة لكلمة (مجنون) . الكثير منا يعتقد ان مجرد الحديث عن الحالة النفسية او العقد النفسية او الانهيار العصبي وغيرها من المصطلحات النفسية تسبب له مأزقا اجتماعيا . حتى لحظة دخولك الى عيادة الطبيب النفسي تتقاذفك الهواجس ومشاعر القلق من ان وضعك العقلي في خطر . ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟

تحقيق : وائل نعمة تصوير : سعد الله الخالدي

يعتقد حميد راضي (مهندس) ٣٥ سنة:ان مستوى ثقافة الطب النفسي في العراق متدنية جدا ، وربما يكون الحديث عنها مدعاة للضحك والسخرية واثارة هذه المواضيع تجعل من يقف حولك يبتسم وتدور في خلده افكار غريبة عنك وعن سلوكك حتى لو كان سويا !

مفارقة غريبة !

الطريف في الموضوع ان المجتمعات المستقرة والتي يقضي سكانها يومهم بين الورود والبنايات الجميلة واستنشاق الهواء النقي ويجددون حياتهم كل فترة بالسفر والاستجمام ولايعكر صفو حياتهم ازمات الماء والكهرباء والغاز وقائمة طويلة من المنغصات ، ولايقلق نومهم انفجار يغرز زجاج نوافذ البيت بين ضلوعهم ، ولا ينتظرون عودة اطفالهم من المدارس بقلق ولايعرفون هل سيعودون بسلامة أم لا. هذه المجتمعات اكثر اهتماما بالطب النفسي واكثر ثقافة في هذا الجانب ، والطب النفسي في هذه المجتمعات متطور جدا بحيث يكون لكل شخص او مجموعة اشخاص طبيب نفسي خاص يستشيرونه بكل صغيرة وكبيرة .والكثير من الباحثين الاجتماعيين يجزمون بأن هذه الحالة هي الضريبة الضرورية لمعطيات العصر والتحضر .

قدماء العراقيين

حينما تتحدث مع ابو محمد بائع الشاي في أحد اركان منطقة الكرادة وتقول له كما يقول معظم علماء النفس «ان كل شخص هو مريض نفسي» ، او» يعاني من مرض نفس ما « ، «وهذا موضوع ليس مخزيا ولايحرج صاحبه» ، حينها سيضحك كما فعل وقال « الله الستار « . يعتقد ابو محمد الرجل الستيني شأنه شأن الكثيرين بأن الكلام عن الطب النفسي سيكون بالضرورة الحديث عن رجل مجنون .

بالمقابل كان العراقيون القدماء من اقدم الشعوب التي تحدثت عن علم النفس ، وكانوا يعتقدون بأن الامراض النفسية والجسمية ما هي الا عقاب من الآلهة بسبب خطيئة او عيوب اخلاقية للمريض والآلهة بدورها هي التي تسمح للارواح الشريرة بان تتلبس بالشخص المريض وكل روح شريرة تهاجم بعض أجزاء الجسم بشكل تفضيلي.اما المعالجة فكانت بان يقوم المعالج بإجبار او اغراء الروح الشريرة على ترك جسم المريض. وقد وصف الاطباء العراقيون القدماء الكثير من الامراض النفسية المعروفة حاليا حيث وصفوا القلق والكآبة والذهان والصرع والامراض النفسية العضوية ورهاب الخلاء وداء الوسواس القهري .

جهل كامل!

الدكتور واثق إخصائي الأمراض النفسية في مستشفى ابن رشد يقول «يعاني المجتمع العراقي من جهل كامل بالمرض النفسي وطبيعته وأسبابه». ويضيف «أما أسباب المرض النفسي فهي عديدة ومتداخلة منها ما يتعلق بطبيعة الإنسان الصحية والاجتماعية وقد يكون بسبب محنة تعرض لها في حياته فالعراق بعد الحروب المتتالية التي عانى منها المجتمع العراقي انتشرت فيه الأمراض النفسية بشكل كبير وهذا نتاج طبيعي لافرازات الحروب».

فيما تقول ألاخصائية النفسية الدكتورة زينة «كمختصين في مجال الطب النفسي تأخذ هذه المسألة من إهتمامنا الشيء الكثير ،كونها تتعلق بالصحة النفسية لملايين من الناس الذين يقعون ضحية الظروف الأمنية والإقتصادية السيئة والمترتبة عن ظروف الوضع العراقي بشكل عام ، ومن خلال الدراسات العلمية والبحوث الميدانية التي نجريها تبين لنا أن أعداد المصابين بالأمراض النفسية في تزايد مستمر وان أعداد الرافضين لمراجعة الطبيب النفسي بقصد الحصول على العلاج المناسب يفوق أعداد الذين يراجعوننا مئات المرات».

برامج للصحة النفسية !

فيما كشف مسؤول الهيئة الوطنية للصحة النفسية في العراق الدكتور عماد عبد الرزاق في وقت سابق ، عن أن تقريرا حديثا ستصدره منظمة الصحة العالمية قريبا سيتضمن أعداد المحتاجين لرعاية صحية من العراقيين، فضلا عن الاستعداد لبدء تطبيق برنامج جديد مختص بعلاج حالات ما بعد الصدمة النفسية.

واشار الدكتور انمار صلاح (اخصائي امراض نفسية) بأن هذه البرامج التي تتعلق بالصحة النفسية في العراق تعد من البرامج المبتدئة وخاصة برنامج التطوير الذي يحتاج الى مدة طويلة للتطبيق قبل أن تظهر نتائجه على المجتمع، وقال «بدأت هذه البرامج بتطبيق الجزء الأهم منها وبخاصة دمج الصحة النفسية بمراكز الرعاية الصحية الأولية وهو من البرامج الطويلة الأمد، حيث انتهت هذه البرنامج من تطوير وتدريب الكوادر التي ستعمل داخل المراكز وتستقبل المحتاجين لرعاية صحية وكيف يتعاملون معه وكيف يسهلون عملية وصوله لهم للمركز الصحي، وبالتالي أمكانية إزالة الوصمة الاجتماعية أو الحد منها».

بينما يقول الدكتور احمد عبدالوهاب اختصاص الطب النفسي «رغم مضي عدة سنوات على البدء بتطبيق برامج الصحة النفسية في العراق، إلا أننا ما زلنا نعاني من مشكلة (الوصمة) الاجتماعية التي تحد من وصول المحتاجين للرعاية النفسية وبالتالي حصولهم على العلاج أو الرعاية اللازمة، فمجتمعنا لا يتقبل المرض العقلي بل يتعداه إلى درجة التمييز بين المرضى حتى داخل مؤسساتنا الصحية التي تهمل المرضى النفسيين في بعض الأحيان، وهو أمر مرفوض سواء كتصرف مجتمع بأكمله أو مراكز صحية» .

رفض الاعتراف بالمرض

وتذكر الدكتور ليث لطيف (طب عام) حين راجعته قبل فترة احدى المريضات في العقد السادس من عمرها تشكو من وهن عام ، وعند فحصها لم يتبين انها تعاني من مرض جسماني بل كل ما تعانيه كان نتيجة ضغوط نفسية .ويقول « عندما اخبرتها بحقيقة الامر بأنها تعاني اضطرابات نفسية ، غضبت وذهبت تجادل بانها مصابة بامراض خطيرة . وبعد فترة عادت هذه المريضة للمعاينة وسردت لي رحلتها ومعاناتها مع عدد كبير من الاطباء والذين اتهمتهم بانهم لم يعرفوا حالتها والذي شخص مرضها هو الحاج ابو علي والذي ذكر لها بان هنالك (جنيا) قد كان السبب بمرضها ووصف لها حجابا وبعض الامور (لا تعرف ان كانت اعشابا ام ماذا) والتي وضعها لها في اكياس صغيرة تأخذ منها كل يوم كيساً واحداً قبل وبعد الفطور ، و الغريب انها مثقفة ظاهريا وبناتها خريجات جامعيات «!!

ويعتقد الدكتور ليث ،بأن على وسائل الإعلام ان تأخذ دورها ببث برامج إرشادية تسهل التعامل مع المريض وتمد له يد المساعدة وتعطيه الدفع المعنوي لكي يتوجه الى الطبيب النفسي .

مشكلة الطب النفسي

واوضح هاشم كريم باحث نفسي بجامعة بغداد ان المشكلة النفسية في العراق تعود الى عدة عوامل اولها وجود من يحاول أن يلعب دور الطبيب النفساني بصورة غير مشروعة وغير صحيحة . واغلب هؤلاء يعتمدون في عملهم على مبدأ الخرافة الهشة ويدعون إتباعهم للعلم الروحاني متمسكين بعبارة لا نعلم مصدرها وهي (عدم علمك بالشيء لا يعني عدم وجوده).

ولا يخفى على كل عاقل إن التمسك بهذه القاعدة يؤدي إلى الاعتماد على المجهول في الحياة العملية وهذا منطق غير صحيح.

تمثل ذلك بالتعلق بأشياء وهمية وغير علمية عند بعض الناس أو اللجوء إلى من يدعون العلم بالسحر والشعوذة وما شاكل ذلك من أساليب باطلة يرفضها الدين والعلم ويرفضها العقل السليم والفطرة النقية وقد انتشرت هذه الظاهرة في العراق كثيرا.

دراسات علمية ميدانية بينت أن أعداد المصابين بالأمراض النفسية في تزايد مستمر و أعداد الرافضين لمراجعة الطبيب النفسي يفوق أعداد الذين يراجعون عيادات الاطباء

٣٤ % من المرضى الذين يصرون على مراجعة أطباء الجراحة والجملة العصبية وغيرها هم من المرضى النفسيين ولا يحتاجون الى مراجعة المستشفيات العامة

النساء والمشعوذون

وحسب تقارير كثيرة للمختصين بالقضايا النفسية فان النساء في الشرق الاوسط خصوصا حينما يتعرضن في حياتهن الى ارباكات واختلالات نفسية فأن الحل يكون دائما عند اصحاب الشعوذة وفتاحي الفال وممن يدعون اخراج (الجني) من اصابع الارجل! . ام فلاح ٤٥ عاما وربة بيت ، تقول انها كانت تعاني من عصبية مفرطة حينما تتعامل مع اسرتها وقد عاقبت اطفالها وبشكل قاس جدا بحيث اصابت ابنها الصغير (عليً) ببعض الكدمات في جسده حينما رفض ان يطيع اوامرها . وتضيف « لم افكر ابدا بالذهاب الى الطبيب النفسي لاني لست مجنونة ! ولم يخطر في بالي فكرة اني اعاني من مرض نفسي بل اني مصابة بسحر سلطته علي احدى قريباتي لانها تكرهني « . تعتقد ام فلاح بأن (جنيا) سيئا قد سلط عليها من احدى النساء اللاتي يكرهنها لاسباب عا ئلية وجراء هذا العمل اصيبت بخلل في تصرفاتها واصبحت عصبية المزاج ، واردفت قائلة « ذهبت الى احد الاشخاص العارفين بأخراج (الجني) وفك السحر وبالفعل قد تخلصت من هذا الامر واصبحت انسانة طبيعية .

يقول الباحث في الشأن النفسي رائد سامي :ان الطب النفسي عالم كبير ويعتمد على قدرات المعالج وفي البحث بأسباب المرض .ويضيف « المرأة التي تتحدث عن ان الرجل قد اخرج (الجني) الذي اختبأ في جسدها ماهو الا حديث خزعبلات ، فأن الكثير يعتقدون ان المرض النفسي سببه القوى الشريرة التي تتربص بالبشر وتحاول ان تتدخل في حياته في صراع دائم بين (الانس والجن) ، وهذا امر خاطئ لان هذه الامرأة بالتأكيد تعاني من بعض المشاكل النفسية المتعددة وربما ضغوط الحياة والبيت وتربية الاطفال قد جعلها عصبية ولايمكنها ان تحل امورها بطريقة هادئة . ويضيف «أنها قد شعرت بالراحة الوهمية لانها كانت معتقدة بأن هناك قوى خفية قد تدخلت في حياتها واربكتها ولكن هذا ليس علاجا حقيقيا ولكنه ايهام وربما ستعود مرة اخرى الى هذه الافكار حينما تتعرض لمشكلة جديدة في حياتها تجعلها عصبية المزاج من جديد وربما ستتفاقم المشكلة «.

اسباب المرض مختلفة

من جهة اخرى يعاني الشارع العراقي من احباط عام كما يقول معظم الاطباء والمختصين بهذا الشأن بسبب الازمات والانفجارات المفاجئة والقلق من المستقبل .

بلال القابع في احدى غرف مستشفى ابن رشد يقول والده عن حالته « تأسر ابني في الحرب العراقية – الإيرانية وكان عمره حينها ١٨ عاماً ونتيجة للاعتقال والغربة لفترة طويلة فأنه بعد عودته من الأسر كانت نفسيته سيئة للغاية فهو يكثر من الجلوس وحيداً والحديث مع نفسه وأحياناً يفر من البيت ولا نعثر عليه إلا بعد جهد جهيد، وأقوم بجلبه للمستشفى عندما تسوء حالته كثيراً لاستلام الحبوب المهدئة.

بينما لمياء ٤٠ سنة اضطربت حالتها النفسية بعد ان قتل زوجها أمام عينيها في الأحداث الطائفية وتركها وحيدة مع اطفالها الأربعة. تقول بخجل كبير « أصبحت أعاني من الاكتئاب الشديد ونوبات هستيرية وهلوسة، قمت بعدها بمحاولات للانتحار، في إحدى المرات أحرقت بيتي، وأنا الآن أعالج بالصدمة الكهربائية التي تساعدني قليلاً على نسيان تلك الأحداث الأليمة».

أما سرمد عادل ٣٦ عاما واب لثلاثة اطفال يقول «كنت ذاهباً الى صديقي في الموصل حين قام الإرهابيون بتهديده لكي يترك داره وبينما كنا جالسين في البيت مع العائلة هاجمتنا مجموعة من الإرهابيين بنيران كثيفة قتلت صديقي واحد اطفاله وأصبت أنا إصابة بليغة في ذراعي الأيمن أصبحت عاطلاً عن العمل وعاجزاً عن توفير أجور العلاج وعن توفير معيشة لأطفالي ونتيجة لذلك أصبحت أعاني من اضطرابات نفسية وحين تنتابني أقوم بتحطيم أثاث البيت البسيطة وتأخذ زوجتي وأطفالي بالنظر الي وهم يبكون لكن لا حيلة لي فالكآبة تسيطر علي بشكل كبير.

بينما مرتضى عبد الستار٤٤ سنة كان قد شارك في ثلاث حروب ، وهو الان يشعر بضياع العمر وعدم تحقيق اي حلم من احلامه ، يؤكد بأنه يتعرض لضغوطات نفسية قد تفتك بحياته . ويعتقد ان هذه المعاناة تصيب الكثير من العراقيين . ويضيف «اطالب الحكومة بتفعيل الجوانب التي تشعرك بأن الحياة بدأت تدب في بغداد من جديد وهي أمور بسيطة مثل إعادة المتنزهات والاهتمام بالموجودة منها وزيادة المساحات الخضر وانشاء مناطق فيها مساحات وبحيرات مائية . كما يرى ان الاهم من هذا ان تحاول الحكومة حل المشكلات الامنية والخدماتية ورفع الضرر عن كاهل المواطن .

علاج جماعي

ويبدو ان بعض الجهات الحكومية انتبهت لهذا الامر وبدأت فعلا باستخدام طريقة العلاج النفسي الجماعي عن طريق اعادة مظاهر الحياة لمدينة بغداد بعد ان اصيبت بالشلل طوال السنوات الماضية .فمنظر الساحات والشوارع مظلمة مساء، منظر بشع ومخيف . وقد تم العمل خلال الفترة الماضية على انارة الشوارع الرئيسية في العاصمة ، وتزيين العديد من الساحات والحدائق بالنشرات الضوئية لاضفاء نوع من الجمالية على هذه المناطق وإدخال البهجة والسرور على روادها من أهالي بغداد.

أما عن الأمور التي تساعد في عودة الطمأنينة لنفسية الفرد، فقد أشار الباحث الاجتماعي عواد حسين إلى وجود حالات كثيرة تساهم في إخضاع الناس وبشكل جماعي للعلاج النفسي، وهي أمور بسيطة جدا، ويضيف واصفا تجربته الشخصية،» عند ذهابي للعمل كنت أبحث عن الأمور التي تبعث في نفسي الارتياح، فعندما أرى عمال النظافة يعملون اقول في نفسي إن بداية ذلك اليوم تبدو جيدة كذلك أشعر بالأمان عند مشاهدتي شرطة المرور ومفارز الشرطة والجيش ، رغم جهلي بما يمكن أن يحدث في تلك اللحظة أو الساعة. أما عند بدء العد التنازلي لليوم، خاصة عند الغروب أو في المساء عندما يحجم الكثير من المواطنين عن الخروج لعدم إحساسهم بالأمان بسبب تلاشي المظاهر المساعدة السابقة الذكر، فقد أخبرني قسم كبير منهم بأنهم عندما كانوا يضطرون للخروج ليلا، كانوا يتجنبون الشوارع المظلمة أو التى لا توجد فيها نقاط تفتيش أمنية تابعة للشرطة أو الجيش العراقي، حتى وإن كانت المنطقة آمنة نسبيا وهذه حالة خوف ممكن ان تؤدي الى ازمات نفسية فالامان والامن من العوامل لمعالجة النفسية الجماعية.

الاعلام وصورة الطب النفسي

اخصائي الطب النفسي الدكتور محفوظ يعلل اسباب تاخر الصحة النفسية بأن المجتمع العراقي بشكل عام يحمل مفاهيم خاطئة عن الطب النفسي وكذلك عن المصاب بالمرض النفسي ؛ فكل مصاب بمرض نفسي في مجتمعنا يصنّف ضمن قائمة المجانين وفاقدي العقل وهذا متأت من الثقافات الموروثة ،وقد أسهمت السينما المصرية في تعميق هذا الأثر لدى الإنسان العراقي ،حيث أصبح الفرد لا يستطيع تخيل صورة المريض النفسي إلا كونه مجنونا اشعث الشعر ممزق الملابس ، بل أن وسائل الإعلام ذهبت إلى أكثر من ذلك حين أظهرت صورة الطبيب النفسي بصورة تثير السخرية والتهكم ، فحصل أن مثل هذه الصور أصبحت هي الصورة الشاخصة في أذهان الناس ،فهم يتصورون أن المريض نفسيا إنسان فقد عقله وهذا الأمر أشد ما نعانيه نحن في المجتمع العراقي حيث ما زال أغلبنا يرفض زيارة الطبيب النفسي خشية إتهامه بالجنون مثلا ، وفي حياتنا كمختصين المئات من الحالات التي كان بالإمكان علاج أصحابها وإعادتهم للمجتمع ليكونوا عناصر منتجة فيه، لكن المفاهيم الخاطئة التي يتوارثها المجتمع تجعلنا نفقد الكثير من أبنائنا بهذه الطريقة ويضيف « أنه ومن خلال دراسة ميدانية أجريت في بعض المستشفيات مؤخرا تبين أن ٣٤ ٪ من المرضى الذين يصرون على مراجعة أطباء الجراحة والجملة العصبية وغيرها من الإختصاصات الطبية المتعددة بحجة إصابتهم بمرض ما وينوون إجراء عمليات جراحية لأبدانهم في حقيقتهم هم مرضى مصابون بأمراض نفسية و لا يحتاجون إطلاقا لأي علاج من خلال التداخلات الجراحية فلنا أن نقدر كم يكلف علاج هؤلاء المرضى بأمراض لا وجود لها.

معالجة نفسية

اجهزة فحص